

الحكمة في الشعر العربي
- القصيدة النونية لأبي الفتح البستي نموذجاً -

Ahmed Seyyid el- HÜSEYİN*

Abdulhadi TİMURTAŞ**

الملخص :

الحكمة خلاصة تجربة ومعاناة ونظرة إلى الكون والمجتمع، يطلقها صاحبها بكلام موجز ودقيق ليعبر عن حقيقة أو رأي أو مبدأ، يوجه إلى الأجيال الصاعدة للاتعاظ والإرشاد، وشروطها أن تكون عامّة وشاملة، ولكي يكتب لها الخلود يجب أن تنطبق على كلّ الناس في كلّ زمان ومكان، والحكمة موجودة في الشعر العربي منذ نشأته وعلى مرّ العصور الأدبية إلى عصرنا الحاضر والناس يحتاجون إلى من يرشدهم، ويستخلص لهم عبر الزمان، فالشعراء الحكماء هم السّباقون في إيصال الأفكار إلى الناس بشعرهم، ويعتبر الشاعر أبو الفتح البستي واحداً من هؤلاء الشعراء الحكماء، وقد فرغ كلّ جهده وبلاغته في قصيدته النونية، وكأنّه واعظ يعظ الناس، ويؤمّنهم، ويتقّفهم محملاً بالكثير من التجارب التي اكتسبها في حياته الاجتماعية والسياسية، واحتكاكه بالناس والمجتمعات التي عاشها، ممّا أكسبه الخبرة في مختلف شؤون الحياة، ورسم للقاريء والسّامع مجموعة من الفضائل والصفات ليتحلّى بها، وليلبغ هدفه وغايته.

مفاتيح البحث: الحكمة، أبو الفتح البستي، القصيدة النونية، الشعر، البنية

ARAP ŞİİRİNDE HİKMET - EBU'L-FETH EL-BUSTÎ'NİN "EL-KASİDETU'N-NÛNİYYE" ÖRNEĞİ -

Hikmet, uzun tecrübelerin özlü ifadeyle anlatımıdır. Aynı zamanda, evreni ve toplumu okuma şeklidir. Hikmet, öğüt almaları için gelecek nesillere hitap eden bir gereceği, düşüncüyü veya ilkeyi ifade eden veciz bir sözdür. Hikmetin kabul görebilmesi, genel ve kapsamlı olmasına bağlıdır. Hikmetin yaşayabilmesi, her zaman ve her mekânda tüm insanlar için geçerli olmasıyla alakalıdır. Hikmet, doğuşundan günümüze kadar Arap şiirinde varlığını sürdürmektedir. Kuşkusuz insanlar kendilerine doğruyu gösteren ve zamanın tecrübelerini özetleyenlere ihtiyaç duymaktadır. Bu öğüt ve düşünceleri insanlara ulaştıran ilk kişiler şairlerdir. Ebu'l-Feth el-Bustî de bu hikmet sahibi şairlerdendir. O bu konudaki bütün güç ve maharetini *el-Kasîdetu'n-Nûniyye* adlı şiirinde göstermiştir. Bu şiirinde bir vaiz edasıyla insanları, sosyal, siyasî ve dini alanlarda daha evvel kazandığı tecrübe ve bilgilere, hikmetlere yönlendirmektedir. Nitekim o, toplumun farklı kesimleriyle olan ilişkilerinden ve hayatın muhtelif alanlarında aldığı görevler gereği epey deneyim kazanmış biri olarak, bu hikemi şiirinde, okuyucu ve dinleyiciye, kavrayıp sahip olduğu takdirde hedefine ulaştıracak birçok meziyet sunmaktadır.

Anahtar Kelimeler: Hikmet, Ebu'l-Feth el-Busti, el-Kasîdetu'n-Nûniyye, şiir, yapı.

* Öğr. Gör., Şırnak Üniversitesi İlahiyat Fakültesi, Arap Dili ve Belagati Anabilim Dalı, ahmedian1@hotmail.com

** Doç. Dr., Van Yüzüncü Yıl Üniversitesi İlahiyat Fakültesi, Arap Dili ve Belagati Anabilim Dalı, atimurtas71@hotmail.com

WISDOM IN ARABIC POETRY IN THE MODEL OF AL-QASEDATU'N-NONIYYA BY ABO AL-FATH AL-BOSTY

Abstract

Wisdom is the essence of long experiences. It is also a way of reading the universe and society. Wisdom is a brief word that addresses future generations to preach. Wisdom must be general and comprehensive to be accepted. Wisdom is a must for all people at all times and everywhere for his life. Wisdom continues its existence in Arab poetry from birth to day. Certainly, people need to summarize their experience and show their true experience. The first people to deliver these advice and thought to people are poets. Abo al-Feth al-Bosty is one of these wise poets. He has poured all his power and energy into this poem that named al-Qasidatu'n-Noniyya. In his poetry he directs people with experience and knowledge he has earned earlier in social, political and religious fields. He is one who is involved in society and takes roles in various areas of life. At the same time, the reader and the audience are presented with many virtues that will achieve their goal.

Keywords: Wisdom, Abo al Fath al-Bosty, al-Qasidat an-Noniyya, poetry, structure.

تمهيد

الحكمة: عبارة عن معرفة الأشياء بأفضل العلوم، ويُقال لمن يُحسنُ دقائق الصناعات ويُتقنها، حكيمٌ، والحكيم يجوز أن يكون بمعنى الحاكم¹. و الحُكْم والحِكْمَةُ من العلم، والحكيم العالم وصاحب الحكمة، وقد حَكَّمَ أي صار حكيماً². وفي الحديث: إنَّ من الشَّعر لِحُكْمًا³، أي إنَّ في الشَّعر كلاماً نافعاً يمنع من الجهل والسَّفَه ويُنهي عنهما، قد يكون المراد بها المواعظ والأمثال التي ينتفع بها. والحُكْمُ: العِلْمُ والفقه والقضاء بالعدل، وهو مصدر حَكَّمَ يَحْكُمُ، وقيل للحاكم بين النَّاسِ حَاكِمٌ لِأَنَّهُ يَمْنَعُ الظَّالِمَ مِنَ الظُّلْمِ، ومنه اشتقت الحكمة لِأَنَّهَا تمنع صاحبها من الآثام والرذائل. ويقال للرجل إذا كان حكيماً: قد أَحْكَمْتُهُ التَّجَارِبُ، والحكيم: المتقن للأمور⁴. وعندما نبحث عن الأصل اللغوي للفظ (الحكمة) نرى أحمد رضا يذكر أن (الحكمة) مصدر الفعل (حَكَّمَ) حيث جاء حَكْمٌ - يَحْكُمُ - حُكْمًا وحِكْمَةً، صار حكيماً. والحكيم: العالم، صاحب الحكمة⁵.

أما المعنى الاصطلاحي الذي تدور حوله كلمة حكمة، فهو تعبير دقيق عن تجربة إنسانية وتصوير صادق للواقع الذي تحدثه هذه التجربة في النَّفس، بحيث يدفعها إلى العظة والإعتبار، وهي مظهر من مظاهر

1 - أبو الفضل جمال الدين محمد بن مكرم ابن منظور الإفريقي المصري، لسان العرب، دار صادر، بيروت، ط 3، 1414 هـ، 12 / 140.

2 - ابن منظور، لسان العرب، 12 / 140.

3 - محمد بن عبد الرحمن بن عبد الرحيم المباركفوري، تحفة الأحرار بشرح الترمذي، دار الكتب العلمية، بيروت، 1980 م، 1 / 110. محمد بن أحمد بن سالم السفاريني، غذاء الألباب في شرح منظومة الآداب، مؤسسة قرطبة، ط 2، 1993 م، 186.

4 - ابن منظور، لسان العرب، 12 / 140.

5 - أحمد رضا، معجم متن اللغة، دار مكتبة الحياة، بيروت، 1958، 2 / 139.

قوة النفس وبراعتها وقدرتها على تصوير وقع الحوادث تصويراً صادقاً، وحكمة الحكيم تعكس على صفحاتها جوانب العبقرية والقدرة على رسم التجربة الإنسانية كاملة بجميع جوانبها، بحيث تبدو وكأنها قضية مسلم بها؛ لأنها نتاج العقل البشري المفكر الواعي الخبير في الحياة وأسرارها ودقائقها.

وقد عرفها الدكتور محمد التونجي بأنها عبارة محكمة موجزة يتمثل فيها معنى خلقي أو موعظة، سارت بين الناس واستخدموها بكثرة، برهاناً على حدث مماثل أو تجربة وقع فيها الناس فعرضها الحكماء نثراً والشعراء نظماً، ولقد استنتجوا من خلال تجاربهم واصطدامهم بأحداث الواقع حكماً ترجموها كلاماً بليغاً، وألبسوها أسلوباً فنيّاً، وصبوها في أشعارهم بإيجاز وتماسك.⁶

والحكمة خلاصة تجربة ومعاناة ونظرة إلى الكون والمجتمع، يطلقها صاحبها بكلام موجز ودقيق ليعبر عن حقيقة أو رأي أو مبدأ، يوجه إلى الأجيال الصاعدة للإلتعاض والإرشاد، وشروطها أن تكون عامّة وشاملة، ولكي يكتب لها الخلود يجب أن تنطبق على كلّ الناس في كل زمان ومكان.⁷

وقد عرفت الحكمة بأنها عبارة عن العمل المتّصف بالأحكام، المشتمل على المعرفة بالله تعالى، المصحوبة بنفاذ البصيرة وتهذيب النفس، والحكيم له ذلك، وقد تطلق الحكمة على القرآن، وقد يطلق على العلم فقط، وعلى المعرفة فقط، ونحو ذلك.⁸

ونقول: الحكمة وليدة تجربة وعقل مفكر ورأي سديد أثبتتها التجربة وصقلها العقل وغايتها النصح والإرشاد، وشعر الحكمة هو الشعر الذي ينظمه الشاعر وهدفه الموعظة والنصيحة، وفي العادة يكون الشاعر الحكيم ذا موقف معيّن، ونظرة في الحياة تدفعه إلى بسطها أمام غيره من الناس.

الحكمة في الشعر العربي

في الأدب العربي تراث حافل من الحكم وأدباء اشتهروا خاصة بصوغ الحكم وجرت آثارهم على الأقلام والأفواه، لما تمتاز به من صدق النظرة وشمول الفكرة وإيجاز اللفظ، وكان العرب في الجاهلية لا يعدّون الشاعر فحلاً حتى ينطق بالحكمة، وأدب الجاهلية حافل بتلك الحكم البليغة المشتملة على تجارب قائلها من سادة القبائل وأشرفها، وهذا الباب من أكرم أبواب الأدب العربي، ومن أجله كان العرب في تلك العهود يغالون بالشعر وينشؤون أبناءهم على مدارسته، وكانوا يسمّون هذا الباب من الشعر بالأدب؛ لأنّ حفظ آثاره والتمثّل بها يؤدبان النفس ويهدّبان الخلق.⁹

وقد جاءت الحكمة الجاهلية على قدر كبير من النضج العقلي، فقد أفادوا من خبرة الماضين وأخبار الملوك وقصص الأمم البائدة والملاحظة في الحكمة أنها تلخص تجربة الشاعر ونظرته إلى الحياة والناس وقد جاءت بعاملتها في أسلوب واضح سهل بعيد عن الغريب والتكلف، وقد تغلب على الحكمة مسحة من

6 - محمد التونجي، المعجم المفصل في الأدب، دار الكتب العلمية، بيروت، 1993، 1 / 376 .

7 - فواز الشعار، الأدب العربي، دار الجبل، بيروت، 1999، 1 / 146 .

8 - الحسن البوسي، زهر الآداب في الحكم والأمثال، ت: محمد حجي و محمد الأخضر، دار الثقافة، المغرب، ط1، 1981، 1 / 26 .

9 - فخرى أبو السعود، "في الأدب المقارن" مجلة الرسالة، العدد 207، 1937 م .

الحنن والعاطفة التي يشيع فيها الألم والحسرة ؛ وذلك لارتباط الحكمة بالرثاء من ناحية، والتفكير بمصير الناس، والموت والفناء من ناحية أخرى، ويتضح فيها أثر السن وخبرة الأيام، ففيها تجارب ذاتية، وفي بعضها وعظ وإرشاد ونصح وهداية¹⁰.

ومنبع هذه الحكمة تجارب الدهر وحوادثه والنظرة الصحيحة الواقعية إلى الأشياء، "فالحكمة تلك العبارة التجريدية التي تصيب المعنى الصحيح وتعبر عن تجربة الحياة أو خبرة من خبراتها، ويكون هدفها عادة الموعدة والتصيحة، والحكمة لهذا المعنى لا تصدر إلا من أولئك الذين تمتعوا بقسط موفور من الذكاء، ونفاذ البصيرة، وفصاحة العبارة وبلاغتها"¹¹. فعرفت الجاهلية كثيراً من الحكماء، ذاعت حكمتهم فاشتهروا في عصورهم وبعدها بأصالة الرأي وبعد النظر، ودقة التفكير والنظر الصائب والفهم الصحيح للحياة وأحداثها وتجاربها، فتجري على ألسنتهم الحكمة البليغة الرائعة، وكان العرب يلجؤون إلى هؤلاء الحكماء في الخصومات والمفاخرات والمنافرات والمشاكل التي تواجهها، بل كان في كل قبيلة حكيم تستضيء برأيه في جميع شؤون حياتها. ومن أشهرهم: ¹² قس بن ساعدة (ت 600م)، وقصي بن كلاب (400 - 480 م)، ولقمان بن عاد، وأكثم بن صيفي (ت 630 م) من النثرين، ولبيد بن ربيعة (ت 661 م)، وزهير بن أبي سلمى (400 - 480 م)، وطرفة بن العبد (543 - 569 م)، وعبيد بن الأبرص (ت 598 م)، وعدي بن زيد العبادي (ت 587 م)، وأمّية بن أبي الصلت (ت 626 م)، وأوس بن حجر (530 - 620 م)، وحاتم الطائي (ت 605 م) من الشعراء وغيرهم. ، ونذكر الشاعر زهير بن أبي سلمى (ت 609 م) الشاعر الجاهلي الذي عاش أكثر من ثمانين عاماً، فعرف الحياة وجرب مرّها وحلوها، فجاء بآراء حكيمة رائعة نتيجة شيخوخته الحكيمة الهادئة وخبرته الواسعة، وتجاربه في الإصلاح القبلي، فكان زهير الرجل العاقل الذي يفكر والذي يحلّ ويبني؛ ذلك لأنه قريب من البداوة والفطرة، وكانت حكمته " نتيجة تعمل ومعاناة يعيشها الشاعر وبيئتهما في ثنايا شعره عندما تتاح له فرصة التحدّث عن أمر جلل أو مدح رجل عظيم "¹³. و يمكن أن نلمس الرصانة في الوزن الشعري، وفي حُسن اختيار الألفاظ والعبارات، وفي الوضوح الفكري والسهولة الأدائية، فجعل زهير بن أبي سلمى من حكمته هذه دستوراً مفصلاً، لتهديب النفس وحسن التصرف في السياسة الاجتماعية البدوية، فساق حكمه بأسلوب وعظي حسّي ملموس، يقدم بين يدي الناس نظراته إلى الحياة، فالموت نصيب الإنسان إن لم تصبه اليوم فغداً، والمرء مجبر أن يعاشر الناس ويصانعهم وإلا ظلموه وأذّوه، فإن لم يقو في حياته سحقه الأقوياء، والجبان في هذه الدنيا الخائف من منيته لا فرار له وهل يستطيع أن يتخذ له سُلماً في السماء؟! وعلى هذا النمط يعرض زهير أفكاره ويسوق مواظمه

¹⁰ - يحيى الجبوري، الشعر الجاهلي خصائصه وفنونه، مؤسسة الرسالة، بيروت، ط 5، 1986م، ص 416 .

¹¹ - السيد جعفر الحسيني، تاريخ الأدب العربي، دار الاعتصام، قم، 1414 هـ، ص 151 .

¹² - انظر : أبو عثمان عمر بن بحر الجاحظ، البيان والتبيين، تحقيق وشرح : عبد السلام محمد هارون، مكتبة الخانجي، القاهرة، ط 7، 1988 م، 1 / 365 وما بعد .

¹³ - يوسف فران محمد، زهير بن أبي سلمى حياته وشعره، دار الكتب العلمية، بيروت، ط 1، 1411 هـ، ص 100 .

وحكمته 14:

رَأَيْتُ الْمَنَائِيَا حَبَطَ عَشْوَاءَ مَنْ تُصِبُ
وَمَنْ لَمْ يُصَانِعْ فِي أُمُورٍ كَثِيرَةٍ
وَمَنْ يَجْعَلِ الْمَعْرُوفَ مِنْ دُونِ عِرْضِهِ
وَمَنْ يَكُ ذَا فَضْلٍ فَيَبْخُلُ بِفَضْلِهِ
وَمَنْ يُؤْفَ لَا يُدْمَمُ وَمَنْ يُهْدَ قَلْبُهُ
وَمَنْ هَابَ أَسْبَابَ الْمَنَائِيَا يَنَلْنُهُ
ثَمْتُهُ وَمَنْ تُخْطِيءُ يُعَمَّرُ فَيَهْرَمُ
يُضْرَسُ بِأَنْيَابٍ وَيُوطَأُ بِمَنْسِمِ
يُؤْرَهُ وَمَنْ لَا يَتَّقِ الشَّتْمَ يُشْتَمُ
عَلَى قَوْمِهِ يُسْتَعَنُ عَنْهُ وَيُدْمَمُ
إِلَى مُطْمَئِنِّ الْبَرِّ لَا يَتَجَمَّحُ
وَإِنْ يَرِقَ أَسْبَابَ السَّمَاءِ بِسَلْمٍ

كان في العصر الجاهلي حكماء يفكرون في أمور الدنيا، ووصلوا نتيجة تأملاتهم وتجاربهم إلى حكم رفيعة عالية، مثلما ثبت لنا أن الومضات الحكمية في الشعراء لا تصنعها الأعمار الطويلة فقط، بل تصنعها الظروف النفسية للشعراء أيضاً. ولقد كان من أثر الإسلام في العقلية العربية أنه ما كادت تنزل آيات القرآن الكريم التي تقول: (اقرأ باسم ربك الذي خلق (1) خلق الإنسان من علق (2) اقرأ وربك الأكرم (3) الذي علم بالقلم (4) علم الإنسان ما لم يعلم (5) 15، حتى أخذ المسلمون ينظرون إلى العلم وآثاره نظرة جديدة، وكان للقرآن الكريم وأحاديث الرسول - صلى الله عليه وسلم- أثر محمود في الدعوة إلى التأويل في الكون واحترام العقل، الأمر الذي نتج عنه إقبال المسلمين على القرآن يتدارسونه، وعلى الحديث يجمعونه، وعلى ثقافة الأمم المفتوحة يأخذون منها، فأخذوا يضعون الأسس لكثير من العلوم التي زهت وازدهرت في ظل الإسلام وخلفاء المسلمين .

والحكمة عند الرسول - صلى الله عليه وسلم- من أعز ما يطلب، وقد حث عليها قائلاً: (الحكمة ضالة المؤمن وإذا وجدها فهو أحق بها). 16 ولا شك أن العرب المسلمين الذين آمنوا بإدراكهم لمنزلة الحكمة في القرآن الكريم والحديث الشريف قد جنح بهم تفكيرهم إلى إجهاد عقولهم لإثبات ذاتهم بالتفكير الجاد والحكمة البليغة. وهكذا ما مضى وقت من الزمن على ظهور الإسلام حتى أخذ العقل الإسلامي ينضج ويتشبع بالتعاليم الجديدة عقيدة وفكراً وحكمة، فظهر حكماء عرفوا برجاحة العقل وأصالة التفكير وبُعد النظر، وقد احتلوا مكانة رفيعة بين قومهم، وتناقل الناس حكمهم؛ اعترافاً بفضلهم؛ وتقديراً لمكانتهم وسيادتهم، وفي الحكمة كتب ونظم كثيرة لعلماء الدين، ومن آثار الحكمة التي مبعثها الشعور الديني أشعار أبي العتاهية (ت 826م) وابن عبد القدوس (ت 783 م) والإمام الشافعي (ت 204 هـ).

وإن أهم ما يميّز العصر العباسي في المجال الفكري، هو النزعة إلى التجديد وقد كان لهذا المبدأ

14 - زهير بن أبي سلمى، ديوان زهير بن أبي سلمى، شرحه وقدم له: علي حسن فاعور، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، ط 1، 1988م، 110 - 111 .

15 - العلق، 5-1/96

16 - القاضي أبي عبد الله محمد بن سلامة القضاعي، مسند الشهاب، ت: حمدي عبد المجيد السلفي، مؤسسة الرسالة، بيروت، ط 1، 1985، 65 / 1 . رحاب عكاوي، لآلئ الحكم، دار الفكر العربي، بيروت، ط1، 2003 م، 9 .

آثار محمودة على العقل العربي، إذ تفتح على ثقافة الحضارات المجاورة من فارسية ورومية ويونانية وهندية، فحصل تمازج بين الحضارات الأعجمية، وقد تأثر شعر الحكمة في العربية بروح الفلسفة اليونانية، فالولع بالحكمة ظاهر في الأدب العربي، فاقتباس المأثور من كلام المتقدمين أكثر ذبوعاً في العربية، والحكمة تأخذ حيزاً كبيراً في كتب الأدب التي تحفل بما أثر عن الحكماء والخلفاء والفقهاء من جوامع الكلم، وهي موضوع مطولات كثيرة، وقد ألع الكتاب بنثر حكم الشعراء في رسائلهم مسجوعة منمقة، كما ألع الشعراء بنظم الحكم السائرة وأمثال العامة، وكان الشعراء أكثر لجوءاً إلى نظم الحكم وسرد العبر والاستشهاد بعظات التاريخ خاصة في قصائد الرثاء ورسائل التعزية وأشعار الشكوى والوجدانيات، وكثيراً ما كانت تساق الحكم في هيئة نصائح.

أما الموضوعات التي طرقتها الحكمة في الأدب العربي فلا تحصر، فقد جالت في شتى نواحي الحياة، من غرور الدنيا وتقلبها، ووجوب الحذر منها وتوقع زوالها، إلى مزايا الشدائد وامتحانها للرجال، إلى ندرة الصديق الصدوق، ومن شؤون الحياة اليومية إلى سياسة الدول وحكم الشعوب، ومن آداب الحوار إلى آداب مصاحبة السلطان؛ وكان بعض الشعراء يتوفرون على ضروب دون غيرها من الحكمة، حسب ما توجههم إليه بيئاتهم ونفسياتهم؛ فأبو العتاهية كان دائم الذكر للموت :

وَيَا سَاكِنَ الدُّنْيَا أَمِنْتَ زَوَالَهَا وَلَقَدْ تَرَى الأَيَّامَ دَائِرَةَ الرِّحَى
أَيَّنَ الأَلَى بَنُوا الحُصُونَ وَجَنَّدُوا فِيهَا الجُنُودَ تَعَزُّزاً أَيْنَ الأَلَى
أَيَّنَ الحُمَاةُ الصَّابِرُونَ حَمِيَّةً يَوْمَ الهِيَاجِ لِحَرِّ مُجْتَلَبِ القَنَا
وَذُوو المَنَابِرِ وَالعَسَاكِرِ وَالدَّسَا كِرِ وَالمَحَاصِرِ وَالمَدَائِنِ وَالقُرَى
وَذُوو المَوَاكِبِ وَالمَرَاكِبِ وَالكِتَا ائِبِ وَالنَّجَائِبِ وَالمَرَاتِبِ فِي العُلَى
أَفَنَاهُمْ مَلِكُ المُلُوكِ فَأَصْبَحُوا مَا مِنْهُمْ أَحَدٌ يُحْسُ وَلَا يُرَى¹⁷

والمتنبّي (ت 354 هـ) كان يشتقّ حكمه من حياة التناحر والمطامع والمعارك الأدبية والسياسية التي كان يحياها، والمعري كان يستقي حكمته ويستخرج عبرة من ظواهر الكون التي كان دائم الاشتغال بها، فكثير من الظروف التي أحاطت بالأدب العربي في الجاهلية والإسلام كانت تدعو إلى انتشار آثار الحكمة فيه، فجاء حافظاً بها منثوراً ومنظوماً على متعدد الصور ومختلف الأوضاع .

البُستي ونونيته

ومن شعراء الحكمة أبو الفتح البُستي¹⁸ (ت 400 هـ)، والبُستي نسبة إلى بُست¹⁹، وهي مدينة

17- أبو العتاهية، ديوان أبي العتاهية، دار بيروت للطباعة، بيروت، 1986 م، 27 .

18 - البغدادي، إسماعيل باشا، هدية العارفين، أسماء المؤلفين والمصنفين، دار إحياء التراث العربي، بيروت، لبنان، 1 / 685 .
فروخ، عمر، تاريخ الأدب العربي، دار العلم للملايين، بيروت، ط 4، 1984، 3 / 49 . خير الدين الزركلي، الأعلام، دار العلم للملايين، بيروت، ط 15، 2002، 4 / 326

19 - عمر فروخ، تاريخ الأدب العربي، 3 / 49 . انظر : مقالة للدكتور : محمد محمدي النورستاني، معاقل العلم والعلماء (بست) مدينة العظماء ، مجلة الوعي الإسلامي الكويتية، العدد 565، لعام 2012، إن تيمور أجهز عليها في أواخر القرن الثامن، فأوقع بها وبما جاورها الدمار، حين زحف

كبيرة في بلاد كابل ، تقع بين سجستان و غزنة و هراة ²⁰، وكانت في القرن الرابع ثانية المدن الجلييلة في سجستان وأهلها مثل أهل العراق، وبها متاجر إلى بلاد الهند، وبها نخيل وأعناب وهي خصبة جداً ²¹. وموقعها اليوم في الجمهوريّة الأفغانيّة إلى الغرب من مدينة قندهار. فقد أشاد بجودة شعره كلّ من ترجم له، أو ذكر له بعض المقطوعات، واعترفوا بأستاذيته، ومن هنا تأتي أهمية إخراج شعره كاملاً إلى الوجود، ليُلقي المزيد من الضوء والوضوح على الشعر العربي في بلاد فارس، وعلى الحياة بشئى نواحيها في تلك الأصقاع، فمدينة بُست برز منها العديد من العلماء والأدباء، وهؤلاء الكثير منهم استقرّوا في بلادهم ومدنهم؛ ليفيدوا طلبتها بعلمهم وأدبهم، ولقد أتاح أبو الفتح البُستي من هذه الهيئة العلميّة التي تفتّحت عليها عيناه، بالإضافة إلى ذلك فإنّ أبا الفتح يتمتّع في نفسه بموهبة كبيرة وحيويّة متدفقة وذكاء عظيم، ولا يلبث أن يدفعه طموحه إلى الانغماس في سلك الدواوين والعمل بها رغم ما كان يحيط بذلك العمل من أخطار، وما يشعر به من الدسائس والمؤامرات، دعت كثيراً من العلماء إلى العزوف عنه، والابتعاد عن الانخراط في سلوكه، وأبو الفتح أقدم على هذه المغامرة، وطمع ببصره إلى منصب الوزارة في بُست، وهو منصب كانت تحوطه من الأهوال ما عبّر عنه هو نفسه بقوله ²²:

وزارة بُستٍ وزرّها قاصمُ الظَّهرِ ومُدَّتْهَا مُنذُ العَدَاةِ إلى الظَّهرِ
فلا تخطبها إنّها ضرةُ النهى وبُعَيْثُهَا رُوْحُ البُعُولَةِ في المَهرِ

وبالرغم من ذلك فإنّ أبا الفتح قد ظهر به، وكان ذلك لثقته بنفسه واعتداده بكفاءته ومواهبه، واعتراف الناس له بها، ولقد أحسّ أبو الفتح نتيجة لقربه من الملوك واتّصاله بهم بمدى الظلم الذي كان يصيب الرعيّة في ذلك الوقت نتيجة تقلباتهم وأهوائهم، ولقد أثر ذلك في نفسه، فنأدى في شعره بمراعاة العدل وألحّ في ذلك، كما أهتمّ بتسديد خطأ الإنسان نحو السعادة في هذه الحياة بما أودعه في شعره من حكمة وما استخلصه من تجربة نافعة وجهها إليه في نصيحة، هذه كما نعتقد هي العوامل والمؤثرات العامّة التي جعلت من أبي الفتح كاتباً قديراً، وشاعراً مبدعاً، فنراه يقول في قصيدته النونية أو (عنوان الحكم) التي ذكرها الكثير منهم السبكي ²³ وأحمد المنيني ²⁴ وقام بضبطها والتعليق عليها عبد الفتاح أبو غدة ²⁵ وقام

إليها من زرنج، ولم يبق من بُست إلا حصنُها الذي ظلّ يُقاوم الأحداث بفضل موقعه الحربيّ، إلى أن خرّبه نادرشاه في القرن الثاني عشر الهجري، عام 1117هـ/ 1738م، ولا تزال أسواره قائمة على شاطئ الهيلمند، كما أنّ الأطلال التي تشغل مساحة كبيرة من الأرض تشهد على ما كان لعاصمة الغزنويين من عظمة وبهاء، وحصن بُست مازال يُعرف بقلعة بُست، وما زالت أسواره قائمة إلى الآن.

²⁰ - الإمام أبي سعد عبد الكريم بن محمد بن منصور التميمي النيسابوري، الأنساب، ت: عبد الرحمن بن يحيى المعلمي اليماني، ابن تيميّة، القاهرة، ط 1، 1980 م، 2 / 208 . ياقوت الحموي، شهاب الدين أبي عبد الله بن عبد الله الرومي البغدادي، معجم البلدان، دار صادر، بيروت، 1977، ط 1، 1 / 414 . فروخ، عمر، تاريخ الأدب العربي، 3 / 49 .

²¹ - كي لسترنج، بلدان الخلافة الشرقية، ترجمة: بشير فرنسيس و كوركيس عواد، مؤسسة الرسالة، بيروت، 1985 م، ص 384 .

²² - البُستي، ديوان أبي الفتح البُستي، تحقيق: درية الخطيب ولطف الصقال، 79 .

²³ - تاج الدين السبكي، طبقات الشافعية الكبرى، ت: محمود محمد الطناحي وعبد الفتاح محمد الحلو، هجر للطباعة والنشر، 1413 هـ، ط 2، 5 / 293 .

²⁴ - أحمد المنيني الدمشقي، شرح تاريخ العتبي المسمّى بالفتح الوهبي على تاريخ أبي نصر العتبي، ت: محمد باشا توفيق، تصحيح: مصطفى وهبي، المطبعة الوهبية، مصر، 1386 هـ، 1 / 71 .

²⁵ - عبد الفتاح أبو غدة، قصيدة عنوان الحكم، شركة دار البشائر الإسلاميّة، بيروت، لبنان، 1427 هـ، ط 1، 33 حتى 42 .

بتحقيقها حديثاً : درية الخطيب ولطفي الصقال²⁶ وشاكر العاشور²⁷

نص القصيدة

زيادة المرء في دنياه تُقصانُ
وكل وجدانٍ حظٌّ لا ثبات له
يا عامراً، لخراب الدهر مُجتهداً
ويا حريصاً على الأموال يجمعها
زع الفؤاد عن الدنيا وزخرُفها
وأرع سمعك أمثالاً أقصّلها
أحسن إلى الناس تسبّعُد قلوبهم
وإن أساء مُسيءٌ، فليكن لك في
وكن على الدهر معواناً لذي أملٍ
واشدُّ يدك بحبل الدين مُعتصماً
من يتق الله، يُحمّد في عواقبه
من استعان بغير الله في طلب
من كان للخير متاعاً فليس له
من جاد بالمال مال الناس قاطبةً
من سأل الناس يسلم من غوائلهم
من كان للعقل سلطانٌ عليه غداً
من مدّ طرفاً بفرط الجهل، نحو هوى
من عاشر الناس لاقى منهم نصباً
ومن يفئس عن الإخوان، يقلهم
من استشار ضروف الدهر قام له
من يزرع الشرّ يحصد في عواقبه
من استنم إلى الأشرار، نام وفي
كن ريق البشر، إن الحرّ همّة

وربحة غير محض الخير خسرانُ
فإن معناه في التحقيق فقدانُ
تالله هل لخراب الدهر عمرانُ
أنسيت أن سرور المال أحزانُ
فصفوها كدرٌ، والوصل هجرانُ
كما يُفصل ياقوت ومرجانُ
فطالما استعبد الإنسان إحسانُ
عروض زلتته صفح وغفرانُ
يرجو نداءك فإن الحرّ معوانُ
فإنه الركن إن خانتك أركانُ
ويكفه شرّ من عزوا ومن هانوا
فإن ناصره عجز وخذلانُ
على الحقيقة إخوان وأخذانُ
إليه، والمال للإنسان قتانُ
وعاش وهو قريز العين جذلانُ
وما على نفسه للحرص سلطانُ
أغضى على الحق يوماً وهو خزيانُ
لأن سوسهم بغي وعُدوانُ
فجل إخوان هذا العصر خوانُ
على حقيقة طبع الدهر برهانُ
ندامةً، ولحصد الزرع إبانُ
قميصه، منهم، صلّ وتعبانُ
صحيقةً، وعليها البشر عنوانُ

26 - أبو الفتح علي بن الحسين بن يوسف بن محمد بن عبد العزيز البستي، ديوان أبي الفتح البستي، تحقيق : درية الخطيب ولطفي الصقال، مطبوعات مجمع اللغة العربية بدمشق، 1989، 186 حتى 192 .

27 - أبو الفتح علي بن الحسين بن يوسف بن محمد بن عبد العزيز البستي، ديوان أبي الفتح البستي، تحقيق : شاكر العاشور، رند للطباعة، دمشق، ط 3، 357 حتى 360 .

ورافق الرفق في كل الأمور، فلم
لا يغرك حظ جرّه خرق
أحسن، إذا كان إمكان ومقدرة
والروض يزدان بالنار فاعمة
صن حراً وجهك، لا تهتك غلائله
وإن لقيت عدواً، فألقه أبداً
دع التكاثر في الخيرات تطبها
لا ظل للمراء، يعرى من ثقي ونهي
فالناس أعوان من وألته دولته
سحبان من غير مال، باقل حصرأ
لا تودع السرّ وشاء يبوح به
لا تحسب الناس طبعاً واجداً فلهم
ما كل ماء كصداء لوارده
لا تخدمن بمطل وجه عارفة
لا تستشر غير نذب حازم يقظ
فللتدابير فزسان إذا ركضوا
وللأمور مواقيت مقدره
فلا تكن عاجلاً في الأمر تطببه
كفى من العيش ما قد سد من عوز
وذو القناعة راض في معيشته
حسب الفتى عقله خلا يعاشره
هما رضيعا لبان: حكمة وثقي،
إذا نبا بكريم موطن، فله،
يانائماً فرحاً بالعر ساعده
ما استمراً الظلم، لو أنصفت آكله
ياأيها العالم المرضي سيرته،
ويا أبا الجهل قد أصبحت في لحج،
لا تحسبن سروراً دائماً أبداً،
يارافلاً في الشباب الوحف، منتشياً،

يندم رقيق، ولم يذممه إنسان
فالخرق هدم، ورفق بئيان
فلن يدوم، على الإنسان، إمكان
والحر، بالأصل والإحسان، يزدان
فكل حزر لخر الوجه، صوان
والوجه بالبشر والإسراق، غضان
فليس يسعد بالخيرات، كسلان
وإن أظنته أوراق وأغصان
وهم عليه إذا عادته، أعوان
وباقل، في ثراء المال، سحبان
فما رعى غنماً في الدو سرحان
غرائز لست تحصيها وأكبان
نعم ولا كل نبت فهو سعدان
فالبر يخدمه مطل وليان
قد استوى منه إسرا وإعلان
فيها، أبروا كما للحرب فزسان
وكل أمر، له حد وميزان
فليس يحمد، قبل التضج، بحران
وفيه للحر قنيان وغنيان
وصاحب الحرص، إن أثرى فعضبان
إذا تحاماه إخوان وخلان
وساكننا وطن: مال وطغيان
وراءه في بساط الأرض أوطان
إن كنت في سنة، فالدهر يقضان
وهل يلد مذاق، وهو خطبان
أبشر، فأنت بغير الماء ريان
وأنت، ما بينها، لا شك عطشان
من سره زمن، ساءته أزمان
من كاسيه، هل أصاب الرشد نشوان

لا تَغْتَرُ بِشَبَابٍ وَّارْفٍ خَاضِلٍ،
 وَيَا أَخَا الشَّيْبِ لَوْ نَاصَحْتَ نَفْسَكَ، لَمْ
 هَبِ الشَّبَابُ تُبْلِي عُذْرَ صَاحِبِهَا
 كُلُّ الذُّنُوبِ، فَإِنَّ اللَّهَ يَغْفِرُهَا
 وَكُلُّ كَسْرٍ، فَإِنَّ اللَّهَ يَجْبِرُهَا،
 إِذَا جَفَاكَ خَالِيْلٌ كُنْتَ تَأْلُفُهُ
 وَإِنْ نَبَتْ بِكَ أَوْطَانٌ نَشَأْتَ بِهَا
 وَالصَّادِقُ الْبِرُّ فِي الدُّنْيَا مُسَيَّلَةٌ
 فَأَكْبَسُ النَّاسَ مَنْ فِي كَيْسِهِ كَسْرُ
 النَّاسِ هَضْبُ شِمَامٍ حَيْثُ مَيْسَرَةٌ
 كُنَّا نَرَى إِتْمَانَ الْإِحْسَانِ مَكْرَمَةٌ
 خُذْهَا سِوَانِ أَمْثَالٍ مُهَذَّبَةٍ
 مَا ضَرَّ حَسَانَهَا، وَالطَّبْعُ صَانِعُهَا،
 فَكَمْ تَقَدَّمَ قَبْلَ الشَّيْبِ، شَبَابٌ
 يَكُنْ لِمِثْلِكَ، فِي الْإِسْرَافِ، إِمْعَانٌ
 مَا عُذْرُ أَشْيَبٍ يَسْتَهْوِيهِ شَيْطَانٌ
 إِنْ شَيَّعَ الْمَرْءَ إِخْلَاصٌ وَإِيمَانٌ
 وَمَا لِكَسْرِ قَنَاةِ الدِّينِ، جُبْرَانٌ
 فَاطْلُبْ سِوَاهُ، فَكُلُّ النَّاسِ إِخْوَانٌ
 فَارْحَلْ فَكُلُّ بِلَادِ اللَّهِ أَوْطَانٌ
 وَالْأَحْمَقُ الْعُرُّ فِي النَّعْمَاءِ لُقْمَانٌ
 لَا مَنْ يُمَدُّ لَهُ فِي الْفَضْلِ مَيْدَانٌ
 لَكِنَّهُمْ حَيْثُ مَالُ الْمَالِ أَغْصَانٌ
 فَالْيَوْمَ مَنْ لَا يَضُرُّ النَّاسَ مُحْسِنٌ
 فِيهَا لِمَنْ يَبْتَغِي النَّبِيَانَ تَبْيَانٌ
 إِنْ لَمْ يَقْلُهَا قَرِيْعُ الشَّعْرِ حَسَانٌ

تحليل القصيدة

فهي أطول قصيدة من بين قصائد البستي وتبلغ خمسة وستين بيتاً شعرياً التي تفيض بالنصح والتبصير والهداية وهي أنطق دليل على رفعة أدبه وبلاغته، وقد ضمنها النصائح والمواعظ ولكل بيت منها حكمة مستقلة بنفسه

نلاحظ أنّ حكم البستي كلها مبنية على التجارب التي شملت نواحي الحياة والمجتمع والكون، ومن أهمها تجاربه وآراؤه الخاصة في الحياة، واتصاله بالناس، وثقافته الواسعة والتي تشمل الثقافة الإسلامية ومما درسه من علوم اليونان، وما استمده من معارف الهند، ومما عرف عن الفرس من كتب الأخلاق والسياسة والنجوم .

1 - لقد قدم أبو الفتح البستي لقصيدته بمقدمة عامّة في أربعة أبيات، ذكر فيها بعض الحقائق الهامة في حياة الإنسان والتي تظهر له بالتأمل وأن لا ينكب الإنسان على الدنيا وينشغل بها وأن لا تكون الدنيا مبلغ علمه وغايته، فيقول :

زيادة المرء في دنياه نقصانٌ وربُّهُ غَيْرَ محضِ الخَيْرِ خُسرَانٌ

حيث ينبّه البستي أن لا تكون الدنيا أكبر همّ الإنسان ولا مبلغ علمه، وأن المرء إذا كانت أرباحه أرباحاً دنيوية بحتة، ولا اهتمام له بالأخرة ولا عناية بها، فهذه الأرباح التي يحصل عليها، هي في حقيقة الأمر نقصان إلا إذا كانت من أنواع البرّ وصنوف الطاعات التي كلما ازداد منها زاد علواً ورفعة .

وكل وجدان حظّ لا ثبات له فإن معناه في التحقيق فقدانٌ

كما أنّه يبيّن بأنّ كلّ نصيب وحظّ يحصل عليه المرء في دار الدنيا إن لم يكن في الخير يكون خسارة له ونقصاً من حظّه في آخرته ،

يا عامراً، لخرابِ الدَّهرِ مُجتهداً تاللهِ هل لخرابِ الدَّهرِ عُمرانُ

وذلك في صورة خطاب بحرف النداء (يا) مستعملاً أسلوب الاستفهام الذي يعطي حركة حوارية قائلاً: أيها الإنسان المنشغل بعمارة هذه الدنيا والمنصرف عن عمارة الآخرة، هذه الدنيا مآلها إلى الخراب ونهايتها إلى الفناء، أنت في حقيقة الأمر تعمل على فناء عمرك وبناء دنياك .

ويا حريصاً على الأموالِ يجمَعُها أنسيبت أن سرورَ المالِ أحرانُ

زَعِ الفؤادَ عن الدنيا ورُحْرِفِها فصَفِّوها كَدْرٌ، والوَصَلُ هِجرانُ

فأنت أيها الحريص على جمع المال هل نسيت أنّ السرور الذي يأتي من وراء ذلك هو في حقيقته أحران، فمثل هذا عندما يكون قلب الإنسان منصباً على تحصيل جمع المال، فهذا يترتب عليه ضياع دينه وفساد إيمانه ؛ لذا كفت قلبك عن الانصراف إلى الدنيا وامنعه من ذلك؛ لأنّ كل ما يحصله الإنسان من أمور الدنيا كدر في تحصيله - وأيضاً- كدر من الخوف من فقده، والقرب منهما هو في الحقيقة هجران .

والبُستي في هذه الأبيات السابقة التي تعدّ ديباجة قصيدته يحذّر من الانكباب على الدنيا والانشغال بها، وألا تكون الدنيا مبلغ علم الإنسان وغاية مقصوده، ولا يعني ذلك تعطيل كسب الرزق والمال الحلال، فربّما اعتمد البُستي على قول الرسول محمّد (ص): (...وَلَا تَجْعَلِ الدُّنْيَا أَكْبَرَ هَمِّنا، وَلَا مَبْلَغَ عِلْمِنا،)

28

2 - بعد التّحذير من الدنيا والإفتنان بها، بدأ يصوغ حكمه وينثر وصايا عظيمة في كلّ بيت من أبيات قصيدته يحمل حكمة عظيمة ووصيّة نافعة ، فأول ما بدأ يحثّ السّامع ويستنهض الهمم لحسن الإستفادة، ولهذا يقول :

وأرَعِ سَمْعَكَ أمثالاً أَفصَلُها كما يفصل ياقوت ومرجان

أي اسمع بإنصاف وتأمل وعناية دقيقة وبفهم ما يقال لك، فإنّ في ذلك نفعاً عظيماً وفائدة كبيرة لك .

وانتقل إلى فكرة أخرى مع ذكر الفضائل التي تسبب السّعادة للإنسان، ثم ينتقل إلى فكرة الإحسان، ويرى في الإحسان العزّ الذي يمتلك القلوب، ثمّ العفو عن المسيء وتقديم يد العون والمساعدة لكلّ شخص يثق بك، فقال :

أحسِنِ إلى النَّاسِ تَسْتَعْبِدُ قُلُوبَهُمْ فطالما استعبَدَ الإنسانَ إحسانُ

بالإحسان يتمكّن الإنسان من استعباد القلوب وامتلاكها، وهي الوسيلة المؤكّدة للوصول إلى ذلك،

ومراد البُستي من هذا البيت أنّ الإحسان إلى الآخر فيه ثمار ومن ثماره أنّ من تحسن إليه لا ينسى معروفك ولا يغيب عنه إحسانك فيذكرك بالجميل ويعاملك بالحسنى، وأنّ البُستي استمدّ فكرته من قوله تعالى: (وَأَحْسِنُوا إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ) ²⁹.

ثمّ ينتقل أبو الفتح البُستي بعد ذلك إلى التمسك بحبل الله - تعالى- وهو القادر على إجابة طلب وتلبية الإنسان ونصرته، وكلّ من عاداه في عجز وخذلان، فيقول :

وإنّ أساءَ مُسيءٌ، فليكنْ لك في عُرُوضِ زَلَّتْهُ صَفْحٌ وَغُفْرَانُ

يبين البُستي في هذا البيت الطريقة المثلى في التعامل مع من يخطئ في حقّ غيره ويسيء إليه، وكيف يتعامل معه، ولا سيّما تلك الزلّة العارضة، فيطلب أن نقابل تلك الزلّة بالصّفح والغفران . وربّما استمدّ الفكرة من الآية الكريمة: (وَالكَافِرِينَ الْعَظِيمِينَ وَالْعَافِينَ عَنِ النَّاسِ وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ) ³⁰ .

وكنْ على الدّهرِ معواناً لذي أملٍ يَرجو نَدَاكَ فَإِنَّ الحُرَّ مِعْوَانُ

عليك أن تمدّ يد العون والمساعدة لكلّ من يطمع في كرمك وإحسانك، وطلب العون والمساعدة هي من شيم الأحرار .

ثمّ ينتقل البُستي إلى تقوى الله والاستمسك بحبله وتوجيه الطلب إليه؛ لأنّه هو الوحيد القادر على إجابة الطّلب والنّصرة، فقال :

واشدُّ يديكَ بحبلِ الدّينِ مُعتَصِماً فَإِنَّهُ الرُّكْنُ، إنْ خَانَتْكَ أركانُ

مَنْ يَتَّقِ اللَّهَ يُحْمَدُ فِي عَوَاقِبِهِ وَيَكْفِهِ شَرٌّ مَنْ عَزَّوَأَمْ مَنْ هَانُوا

مَنْ اسْتَعَانَ بغيرِ اللَّهِ فِي طَلْبٍ فَإِنَّ نَاصِرَهُ عَجَزٌ وَخِذْلَانُ

ففي هذه الأبيات الثلاثة يوجّه الإنسان إلى التمسك بكتاب الله وسنة نبيه محمّد - صلى الله عليه وسلّم - والدّين هو العروة الوثقى، من استمسك به نجا ومن حافظ عليه سلّم، هو دين الله سبحانه وتعالى والاعتصام بكتاب الله - عزّ وجلّ - وسنة نبيه محمّد - صلى الله عليه وسلّم - وأنّ تعمل بطاعة الله وتترك معصيته و تستعين بالله تعالى، وغير ذلك عجز وخذلان فاستمدّ أبو الفتح فكرته من الآية الكريمة (وَاعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللَّهِ جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُوا) ³¹، ونراه هنا متأثراً بقيم ونصائح القرآن الكريم.

ويعود مرّة أخرى إلى الإحسان، ونراه يحضّ على ذلك مبيّناً شتى أنواع الخير، وهذه القضية كانت تشغله لما يراه من كثرة المحتاجين إليه، فقال :

مَنْ كَانَ لِلخَيْرِ مَتَاعاً، فَلَيْسَ لَهُ عَلَى الحَقِيقَةِ إِخْوَانٌ وَأُخْدَانُ

نراه ينبّه الإنسان الذي يمنع الخير ولا يتقرّب إلى الله - سبحانه - بعمله الصالح، قائلاً : فألذّي كان

²⁹ - البقرة ، 2 / 195

³⁰ - آل عمران / 3، 134 .

³¹ - آل عمران ، 3 / 103 .

مانعاً للخير، مقتراً لا ينفق ما آتاه الله ووسع عليه من المال والرّزق، لا يكون له إخوان ومحبين وأصدقاء وأصحاب أوفياء .

مَنْ جَادَ بِالْمَالِ، مَالَ النَّاسِ قَاطِبَةً إِلَيْهِ، وَالْمَالُ لِلْإِنْسَانِ قَتَانٌ

الَّذِي يَبْذُلُ الْمَالَ وَيَكُونُ سَخِيًّا، النَّاسُ يَمِيلُونَ إِلَيْهِ وَيُحِبُّونَهُ، فَهَذِهِ إِشَارَةٌ تَدُلُّ عَلَى السَّخَاءِ وَالْجُودِ وَالْإِحْسَانِ .

وينتقل أبو الفتح إلى فائدة الحكمة وما يستفيد المرء لو عمل وتمسك بها، فنراه يتحدث عن الرّفق والمسالمة والدفع بالتّي هي أحسن، فقال :

مَنْ سَأَلَ النَّاسَ، يَسَلِّمْ مِنْ غَوَائِلِهِمْ وَعَاشَ وَهُوَ قَرِيرُ الْعَيْنِ جَذْلَانٌ

أي من يعامل النَّاسَ بالرّفق والمسالمة فإنّه يسلم من شرّهم وعدوانهم وظلمهم، ويعيش حياة سعيدة .

وينتقل إلى التّعامل مع الأمور بالعقل والفتنة والنّظر في العواقب، بخلاف مَنْ يتعامل مع الأمور بالطّيش والنّهوّ والاندفاع، فقال :

مَنْ كَانَ لِلْعَقْلِ سُلْطَانٌ عَلَيْهِ غَدَاً وَمَا عَلَى نَفْسِهِ لِلْجُرْصِ سُلْطَانٌ

يعني مَنْ يعمل بالعقل والفتنة ويفكر في أمور الدّنيا يغدو زاهداً وسيحمد العاقبة، بخلاف مَنْ يتعامل مع الأمور بالطّيش والنّهوّ، فهذا يجني على نفسه ما لا يُحمد عقباه .

ثمّ يذكر ما في طبيعة النَّاسِ عموماً والإخوان خصوصاً مِنْ بغي وعدوان وخيانة، ثمّ يحذّر من فعل الشرّ وعاقبته الوخيمة ومصاحبة الأشرار وما في ذلك من خطورة، قال :

مَنْ مَدَّ طَرْفًا بَفَرْطِ الْجَهْلِ، نَحْوُ هَوَىٍّ أَغْضَى عَلَى الْحَقِّ يَوْمًا وَهُوَ خَزْيَانٌ

مَنْ أطلق بصره نحو الهوى والشّهوات المحرّمة، تتأقل عن نصر الحقّ، وباء بالدّل والخزي؛ لأنّ طرفه أصبح مهتمّ بالشّهوات والمّلذات وتتبعها والبحث عنها وسيكون ذليلاً .

3 - ويواصل نثر حكمه واحدة تلو الأخرى ، قائلاً :

مَنْ عَاشَرَ النَّاسَ لَاقَى مِنْهُمْ نَصَبًا لِأَنَّ سَوْسَهُمْ بَغْيٌ وَعُدْوَانٌ

في هذا البيت يتحدّث ويبيّن مساوئ وأضرار المعاشرة، أي معاشرّة النَّاسِ عموماً دون مراعاة فيمن يصاحب ومَنْ يخالل.

وَمَنْ يُفْتَشِ عَنِ الْإِخْوَانِ يَفْلِهِمْ فَجُلُّ إِخْوَانِ الْعَصْرِ حَوَّانٌ

يعني أنّ مَنْ يبحث عن الأصحاب ويفتّش عن رفقاء ليصاحبهم يجدهم قلّة؛ لأنّ معظم رفقاء هذا العصر خونة لا يقيمون للصدّاقة وزنا، فمَنْ يبحث عن الإخوان والرفقاء الأخيار لا يجدهم.

مَنْ اسْتَشَارَ صُرُوفَ الدَّهْرِ قَامَ لَهُ عَلَى حَقِيقَةِ طَبَعِ الدَّهْرِ بُرْهَانٌ

أي مَنْ ينظر نظرة عبر التّاريخ ومسار الأمم وأحوالها والتقلّبات التي تحصل، فيمن خلال هذه النّظرة

سيكتشف وسيقوم له برهان واضح على حقيقة طبع الدهر ومراده .

مَنْ يَزْرَعِ الشَّرَّ يَحْصُدْ فِي عَوَاقِبِهِ نَدَامَةً وَلِحْصِدِ الزَّرْعِ إِبَانُ

فكلّ زارع له حصاد، فمن زرع خيراً حصد ثوابه وأجره إن عاجلاً في الدنيا أو أجلاً يوم القيامة، ومن زرع شراً حصد يوم الحصاد عقابه ووزره. فما يقوله الإنسان بلسانه وما يفعله بجوارحه وما يقترفه في هذه الحياة يحصد ثماره وآثاره يوم لقاء الله - سبحانه وتعالى - كأنه ينبئه إلى يوم القيامة، هو يوم الحصاد، وكلّ إنسان سيلقى في ذلك اليوم ما قدم في هذه الحياة . وقد استمدّ الفكرة من قوله تعالى : " فَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ . وَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُ "32.

مَنْ اسْتَنَامَ إِلَى الْأَشْرَارِ نَامَ وَفِي قَمِيصِهِ مِنْهُمْ صِلٌّ وَتُعْبَانُ

فالذي يركن إلى الأشرار ويجالسهم ويطمئن إلى صحبتهم ويحرص على رفقتهم سيجني من هذه الجالسة حصاداً مرّاً، لأنهم سيضعون له السمّ . والمراد بالسمّ هنا الذي يناله الإنسان بمصاحبة الأشرار، هو ما يفتحونه عليه من أبواب الشرّ التي فيها هلاكه .

كُنْ رَيْقَ الْبِشْرِ إِنْ الْحَرَّ هَمَّتْهُ صَحِيفَةٌ وَعَلَيْهَا الْبِشْرُ عُتْوَانُ

إنّ همّ الحرّ أن يكون طلق الوجه، باسم المحيّا، همته في ملاقة الناس، ووجهه مثل الصّحيفة البيضاء التي عنوانها البشر ليحبّه الناس ويألفوه وينتفعوا به وينتفع بهم .

وبعد هذا التحذير يعود أبو الفتح البستي إلى عدد من الفضائل، وعلى الإنسان أن يتعامل مع الناس برفق فلن يندم يوماً من الأيام، فقال :

وَرَافِقِ الرَّفِيقَ فِي كُلِّ الْأُمُورِ فَلَمْ يَنْدَمْ رَافِقٌ، وَلَمْ يَنْدَمْهُ إِنْسَانٌ

وَلَا يَغْرُكَ حَظُّ جَرِّهِ خَرْقٌ فَالْحَرْقُ هَدْمٌ وَرَفِيقُ الْمَرْءِ بُنْيَانٌ

يعني من يتعامل مع الناس برفق ولين وسعة الصدر لم يندم يوماً من الأيام والذي يتعامل مع الناس بضدّ الرفق يندم، ولا تغترّ بطيش الأحمق لأنّ الطيش يهدم وصاحبه لا يحصل من ورائه أثراً حميدة بل يقع في الهلاك . وجاء في صحيح الجامع على لسان رسول الله (ص) : (مَنْ يُحْرِمِ الرَّفِيقَ يُحْرِمِ الْخَيْرَ كُلَّهُ)

33

4 - ثم يعود إلى الإحسان مرّة أخرى وهذا الإحسان لا يختص بأمر معيّن وإنما يتناول كلّ أبواب الإحسان منها العلم والعبادة والبر وغيرها، قائلاً :

أَحْسِنْ، إِذَا كَانَ إِمْكَانٌ وَمَقْدِرَةٌ فَلَنْ يَدُومَ، عَلَى الْإِنْسَانِ، إِمْكَانٌ

إذا تمكّنت من الإحسان فأحسن فربّما هذا الإمكان الذي حصل لك لن يدوم ولن يستمرّ؛ لأنّ الأمور والأيام تتغيّر فما كان ممكناً اليوم قد لا يكون ممكناً غداً؛ ولهذا ينبغي على الإنسان إذا انفتح له باب من

32 - الزلزال، 99 / 7 - 8 .

33 - الترمذي، رقم: 6606.

أبواب الخير أن يحرص على اغتنامه وتحصيله فوراً . ولقد استمد فكرته من قوله تعالى : (يَا أَيُّهَا الَّذِينَ
آمَنُوا اسْتَجِيبُوا لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمْ لِمَا يُحْيِيكُمْ ۖ وَعَلِّمُوا أَنْ اللَّهَ يَحُولُ بَيْنَ الْمَرْءِ وَقَلْبِهِ وَأَنَّهُ إِلَيْهِ
تُحْشَرُونَ) ³⁴

والرَّوضُ يَزْدَانُ بِالنُّورِ فَاغِمَةً ۖ وَالْحُرُّ، بِالْأَصْلِ وَالْإِحْسَانِ، يَزْدَانُ
فَالرَّوْضُ لَا يُمَلُّ النَّظَرَ مِنْهُ؛ لِأَنَّهُ يَتَزَيَّنُ بِالْأَزْهَارِ الْمَتَفَتِّحَةِ الْجَمِيلَةِ ذَوَاتِ الرِّوَائِحِ الْعَطْرَةِ، كَذَلِكَ
الْإِنْسَانُ الْحَرُّ يَزِينُهُ وَيَجْمَلُهُ عَدْلُهُ وَإِحْسَانُهُ .

ثم يواصل أبو الفتح البستي بعد هذه النصائح التي تتعلق بالروابط بين الإنسان ومجتمعه، فيذكر
بعض النصائح الخاصة بالإنسان في ذوات نفسه فيتكلم عن صيانة الوجه وعدم التكاثر في الخير والتحلي
بالتقى والعلم، قال :

صُنْ حُرًّا وَجْهَكَ لَا تَهْنِكْ غُلَاتُهُ ۖ فَكُلْ حُرًّا لِحُرِّ الْوَجْهِ صَوَانُ

حرّ الوجه : حسنه وطيبه وجماله وضيائه . غلاته : قالوا الغلالة : وهو ثوب رقيق يُلبس على الجلد
تحت الثياب . فكان الثوب عليه غطاء رقيق جميل يزدان به الوجه، فإذا دنسه صاحبه هتك تلك الغلالة وأزال
ذلك السّتر عن وجهه، فذهبت عن وجهه نضارته وحسنه، والمراد هنا : صنّ حياءك وماء وجهك ولا تُرْفُهُ
لأجل أمر دنيوي . فالحرّ من الرجال، صاحب المآثر والأخلاق يصون وجهه عن كلّ ما يشينه ويقبحه .

وإن لقيت عدوّاً، فألقه أبداً ۖ والوجه بالبشر والإشراق، غصان

في هذا البيت يبيّن لنا الشاعر كيف يتعامل الإنسان مع العدو وأهل الشرّ، فيقول : إذا لقيت عدوك
فألقه بالبشر والإشراق وطلاقة الوجه لتدفع بذلك شرّه وعدوانيته، وحتى يتأثر بتعاملك وإخلاقك، وربما
يغيّر حاله . واستمدّ الشاعر فكرته من قول رسول الله - صلى الله عليه وسلّم - : (إنّ من شرّ النّاس من اتقاه
النّاس لشرّه ³⁵).

وفي البيت الآتي يحذّر أبو الفتح البستي النّاس عن التّكاسل في الخير، قال :

دَعِ التّكاسلَ فِي الْخَيْرَاتِ تَطْلُبُهَا ۖ فَلَيْسَ يَسْعَدُ بِالْخَيْرَاتِ، كَسْلَانُ

الكسل : التّثاقل عن الفعل مع القدرة عليه، دع التّكاسل إذا فتحت لك أبواب الخير وأحببت أن تكون
من أهل الخير، فالإنسان لا يُسعد إذا كان من أهل الكسل، وقال رسول الله - صلى الله عليه وسلّم - : اللهم
إني أعوذ بك من العجز والكسل ³⁶.

لَا ظِلٌّ لِلْمَرْءِ، يَعْرِى مِنْ نُفَى وَنُهَى ۖ وَإِنْ أَظْلَمَتْهُ أُرَاقُ وَأَغْصَانُ

الإنسان الذي لا يتحلّى بالنّقوى وينقصه العقل لا منعة ولا عزّ له وإن عاش مرقهاً وغمرته نَعَم

34 - الأنفال، 8/ 24 .

35 - ابن عبد البر، أبو عمر يوسف بن عبد الله بن محمّد بن عبد البر، النمري الأندلسي، الاستنكار الجامع لمذاهب فقهاء الأمصار، اخراج وترقيم
: عبد المعطي قلجعي، دار قنينة، دمشق، بيروت، دار الوعي، حلب، القاهرة، 1993 م، 26 / 121 .

36 - الألباني، إرواء الغليل، 3 / 357 .

. الحياة .

وينتقل أبو الفتح البُستي إلى ذكر بعض من الحقائق التي لاحظها في المجتمع، فالذي انفتحت عليه الدنيا وأصبح بيده دنياه ومال، فكلّ يعرض نفسه لخدمته، وإذا انقضى سلطانه انفضوا عنه ونبذوه، وكذلك فإن المال يجعل العبيّ عند النَّاس بليغاً، والفصيح والبليغ من النَّاس الذي لا يملك المال يصبح عبيّاً، فقال :

فالنَّاسُ أَعْوَانُ مَنْ وَأَلْتُهُ دَوْلَتُهُ وَهُمُّ عَلَيْهِ إِذَا عَادَتْهُ، أَعْوَانُ
سَحْبَانُ مِنْ غَيْرِ مَالٍ، بِأَقْلٍ حَصْرًا وَبِأَقْلٍ، فِي ثَرَاءِ الْمَالِ، سَحْبَانُ

الذي انفتحت عليه الدنيا وأقبلت عليه، كلُّ يبدي له استعداداً تاماً لخدمته ومعاونته، وإذا تغيّر الأمر وأدبرت عنه الدنيا يتحوّل عدد منهم إلى أعداء له. وفي البيت الثاني اقتبس فكرته من مثلٍ كما أورده لنا الميداني في كتابه مجمع الأمثال : سَحْبَانُ : رجل من بني وائل، كان من أفصح فصحاء العرب وبلغائها، وبه يُضرب المثل في الفصاحة والبيان، فيقال : أَفْصَحُ مِنْ سَحْبَانَ . وَحَصْرٌ : عبيٌّ . و باقل : رجل من بني إباد، كان مشهوراً بالعبيّ والبلاهة، كان يُضرب به المثل في العجز عن الإبانة عمّا في النَّفس، فيقال : أعيى من باقل، ومن عيّه أنّه اشترى ظيباً بأحد عشر درهماً، وأمسك به، فمرّ بقومٍ فقالوا له : بكم اشتريت الظبي ؟ فمدّ كفيّه وأخرج لسانه، مُشيراً إلى أنّه اشتراه بأحد عشر درهماً، فَشَرِدَ الظبيُّ منه وَهَرَبَ . فَضْرَبَ به المثل لعبيّه وغبوته³⁷. و سَحْبَانُ البليغ إذا عري من المال صار في نظر كثير من النَّاس عبيّاً، عبيٌّ باقل، و باقل العبيّ إذا كان ثرياً غنياً صار في نظرهم فصيحاً بليغاً بلاغة سَحْبَانَ، فالمال عند النَّاس يقلب الحقائق والموازنين، ويؤثر في اعتبار الرّجال وإهمالهم .

ثم ينتقل أبو الفتح البُستي إلى التّحذير من بعض الأمور، وهذا تحذير من انتمان من لا يؤتمن:

لا تُودِعِ السِّرَّ وَشَاءَ يَبُوحُ بِهِ فَمَا رَعَى غَنَمًا فِي الدَّوِّ سِرْحَانُ

الدَّوُّ : المفازة والصّحراء . السّرْحَانُ : الذئب . يحذّر أبو الفتح من إفشاء السّرّ لمن يبوح به، وينبغي على الإنسان أن يحفظ سرّه ولا يبوح به لأحدٍ، وشبهه الذي يفشي سرّه مثل من يُسلم الغنم للذئب لا يحفظها بل يبطش بها ويجعلها ما بين قتيل وجريح .

لا تحسب النَّاسَ طَبْعًا وَاحِدًا فَلَهُمْ غَرَائِزُ لَسْتِ تُحْصِيهِنَّ أَلْوَانُ

لا تظنّ أنّ النَّاسَ على مستوى واحد في الأخلاق، فطبائعهم تختلف، فعليك أن تراعي كلّ إنسان على طبعه من خلال معاشرته ومعاملته .

ما كلُّ ماءٍ كصداءٍ لواردهِ نَعَمْ، ولا كلُّ نبتٍ فهو سعْدَانُ

صداء: اسم عين ماء مشهورة بعودتها وحسن مائها . ومن أمثالهم : ماءٌ ولا كصداء . يعني ما كلّ عين تكون في العذوبة كصداء، ويُضرب مثلاً لرجلين لهما فضلٌ إلا أنّ أحدهما أفضل . وهذا جاء به شاهداً

³⁷ - عبد الفتاح أبو غدة، تصبيرة عنوان الحكم، شركة دار البشائر الإسلامية، بيروت، 1427 هـ، 37 .

لتفاوت النَّاسِ في طباعهم . السَّعدان : اسم عُشب برِّي، يُعدّ من أفضل مراعي الإبل ويدرّ اللبن . ومن أمثالهم : مرعى ولا كالسَّعدان، أي هذا مرعى جيّد ولكن ليس في الجودَة مثل السَّعدان . والمعنى : النَّاس متفاوتون في طباعهم وأخلاقهم وعاداتهم، ففيهم الجيد والأجود والدّون، فعامل كلّ شخص حسب صنفه وحاله .

لا تَخْدِشَنَّ بِمَطْلٍ وَجَهَ عَارِفَةٍ فَالْبِرُّ يَخْدِشُهُ مَطْلٌ وَلَيَّانُ

عندما تقدّم معروفاً لإنسان فإياك أن تجرح معروفك وإحسانك له بالتسوييف والتأخير، كما يقال : خير البرِّ عاجله .

في المأثور عن أهل العلم (ما خاب من استشار) فالاستشارة هي زيادة في العقل؛ لأنك ضمنت إلى عقلك عقل غيرك، من عنده بصيرة ورأي . فأبو الفتح البُستيّ بيّن لنا الرّجل الذي نستشيرُه أن يتّصف بصفات، مبيّناً ذلك في قوله، قائلاً :

لا تَسْتَشِرْ غيرَ نَدْبٍ حازِمٍ يَؤَظُّ قَدِ اسْتَوَى مِنْهُ إِسْرَارٌ وإِعْلَانُ

يعني : عليك أن تعتمد في استشارتك على الرّجل الشّهم المُنجد المسارع للخيرات والضابط للأمر، النّبيه الذي يعرف كيف يبدي الرّأي المناسب في الوقت المناسب، الذي عُرفت سريرته كعلائيته.

فَلِلتدابِيرِ فُرْسَانٌ إِذَا رَكَضُوا فِيهَا، أُبْرُوا كَمَا لِلحَرْبِ فُرْسَانُ

إنّ للحرب فرساناً، كذلك لتدابير الأمور أصحاب رأي، إذا كانت بأيديهم حصلوا وحصل معهم النَّاس - أيضاً - على التّناجح الحميدة الطّيبية بفوزهم على غيرهم بحُسن الرّأي وجودته.

5 - أبو الفتح ينبّه النَّاس إلى مراعاة مواقيت الأشياء وحدودها وموازينها، قائلاً :

وللأُمُورِ مَوَاقِيتٌ مُفَدَّرَةٌ، وَكُلُّ أَمْرٍ، لَهُ حَدٌّ وَمِيزَانُ

فعلى المرء أن يزن كلّ أمرٍ بميزانه المناسب من حيث الوقت والحدود والمكان، سواء أكان المرء يريد الإقدام على أمر أو الإجماع، فلا بدّ من مراعاة ما أشار إليه الشّاعر ألا وهو وزن الأمور بموازينها وحدودها وأوقاتها .

ويحذر من استعجال الأمور قبل أوانه، قائلاً :

فَلا تَكُنْ عَجَلًا فِي الأَمْرِ تَطْلُبُهُ، فَلَيْسَ يُحْمَدُ، قَبْلَ النُّضْجِ، بُحْرَانُ

بُحْرَانُ: لفظ مؤلّد، يوناني الأصل، وهو عند الأطباء : التّغيّر الذي يحدث للعليل دفعة واحدة في الأمراض الحادّة، ويصعبه عرق شديد، وانخفاض سريع في الحرارة.³⁸ فإن وقع بعد نُضج مادة المرض فهو علامة الصّحة والشّفاء، وإن وقع قبل نُضجها فهو علامة الموت والهلاك . فالشّاعر بيّن لنا أن لا نتعجل في الأمور، فالأمور لا بدّ أن تؤخذ بالأناة والرّفق وعدم التّسرّع، وخاصّة في الأمور التي لا تتضح للإنسان ولا تستبين له حدودها وموازينها .

38 - مجمع اللغة العربية، المعجم الوسيط، الشّروق الدولية، مصر، ط 4، 2004 م ، ص 40.

وينتقل إلى فكرة التأمل وما يحتاج إليه الإنسان في الحياة، فيقول :
 كفى من العيش ما قد سدَّ من عَوَزٍ ، وفيه للحرِّ قُنْيَانٌ و غُنْيَانٌ
 إن حققت في الأمر وتبصّرت فيه وجدت أنّ أهل الفضل والخير من النَّاسِ يعتبرون وجود قوت
 و رزق الإنسان الذي يسدّ حاجته كافياً له، وما زاد على ذلك فضلة وزيادة .

ونراه ينبّه إلى مكانة الفتى العاقل الرَّاشد، فيقول :
 حَسَبُ الْفَتَى عَقْلُهُ خِلاَ يُعَاثِرُهُ إِذَا تَحَامَاهُ إِخْوَانٌ وَخُلَانٌ
 الفتى الرَّاشد يكفيه عقله إذا ابتعد عنه وتجنّب الأصدقاء والإخوان؛ وذلك لأنّ صاحب العقل الرَّجِيح
 يحسن التّدابير للأمر ومعالجتها وإتيانها من أبوابها .

وينبّه إلى أنّ الحكمة والنّقى بآتهما متلازمان، فيقول :
 هُمَا رَضِيْعَا لِبَانٍ: حِكْمَةٌ وَتَقَى ، وَسَاكِنَا وَطَنٍ: مَالٌ وَطُغْيَانٌ
 فنراه يبيّن لنا بأنّ الحكمة والنّقى متلازمان، أي تلازم من رضع من ثدي واحد تجمعهم الأخوة
 وتربطهم الرّابطة الوثيقة، وهذا يُضرب به المثل في الأمرين المتلازمين، يقال عنهما : رضيعا لبانٍ . فيعني
 أنّ الحكمة والنّقى رضيعا لبان وساكننا وطن، وأيضا المال والطّغيان رضيعا لبان وساكننا وطن، وأنّ كلا
 منهما ملازم للآخر ولا يفترقان .

ويواصل الحديث بأنّ أرض الله واسعة تأوي كل إنسان ضاق عليه وطنه، فيقول :
 إِذَا نَبَا بِكَرِيمٍ مَوْطِنٌ، فَلَهُ ، وَرَاءَهُ فِي بَسِيطِ الْأَرْضِ أَوْطَانٌ
 إذا كان الفتى في وطنه فقلاه أهله وعادوه وأبغضوه أوروبّا طردوه، فأرض الله واسعة له تأويه .
 6 – ونرى البستي ينتقل من فكرة التأمل إلى التّوجيه والتّحذير، فنراه يخاطب الظّالم ويحدّره من
 عاقبة ظلمه وبيان خطورته، وإنّ الخطورة تحلّ به وإن طال به الأمد، فيقول :

يَا نَائِمًا فَرِحًا بِالْعِزِّ سَاعِدَهُ إِذْ كُنْتَ فِي سَنَةٍ، فَالْدَّهْرُ يَفْطَانُ
 مَا اسْتَمَرَّ الظُّلْمُ، لَوْ أَنْصَفْتَ أَكْلَهُ وَهَلْ يَلْدُ مَذَاقٌ، وَهُوَ خُطْبَانٌ
 في البيت الأوّل يحدّره الظّالم بقوله : يا أيّها الظّالم لا تغتر بنفسك وأنت صاحب عزّ وسلطان وسطوة
 وحاشية وأعوان، وإن كنت في غفلة من ذلك فعين الله لا تنام والظّلم لا يدوم، وصاحب الحقّ ينتقم منك،
 فالذي ينظر إلى تاريخ الأمم يدرك ذلك، وفي البيت الثّاني يشبّه أبو الفتح البستي الظّلم بالحنظل، ويقال في
 المثل : أمرٌ من الخُطبان، أي أمرٌ من الحنظل . ينبّه ويخاطب الظّالم : يا أيّها الظّالم لا تستمر في ظلمك،
 فهل تستطيع أن تتذوّق طعم الحنظل، فالظّلم مذاقه مرّ كطعم الحنظل لا يتحمّله أيّ إنسان، فمن الذي يطبق
 ويستطيب طعم الحنظل ؟!

ويبيّن الإنسان العالم الذي أكرمه الله سبحانه وتعالى بالجمع بين العلم والعمل، مهنيّاً ومبشّراً، فيقول

:

يَأْيُهَا الْعَالِمُ الْمَرَضِيُّ سِيرَتُهُ، أَبْشِرْ، فَأَنْتَ بَغَيْرِ الْمَاءِ رِيَانُ
وَيَا أَخَا الْجَهْلِ قَدْ أَصْبَحْتَ فِي لَحَجٍ، وَأَنْتَ، مَا بِيئَهَا، لَا شَتَّكَ عَطْشَانُ

جاء أبو الفتح البُستي بصورتين متضادتين في هذين البيتين، ففي البيت الأول يخاطب الإنسان العالم : أيها الإنسان لك البشرى بكلّ خير في الدنيا والآخرة ما دمت تجمع بين العلم والسيرة الطيبة من حكم وأخلاق وآداب وفضائل التي وهبك الله إياها، وأنت مطمئن النفس والفؤاد . وفي البيت الثاني يخاطب الجاهل فيقول له : يا أيها الجاهل الرّاضي بجهلك، لو غمرتك الدنيا بخيراتها لبقيت جاهلاً وطمأنناً؛ لأنك فقدت نعمت العلم ولا يروي هذا الظماً إلا العلم النّافع والعمل الصّالح، بالعلم تُسقى العقول والقلوب .

وينتقل بنا ويحدّرنا إلى أنّ الدنيا دار امتحان وبلاء، قائلاً :

لَا تَحْسَبَنَّ سُروراً دَائِماً أَبَداً، مَنْ سَرَّهُ زَمَنٌ، سَاءَتْهُ أَرْمَانُ
إِذَا جَفَاكَ خَائِلٌ كُنْتَ تَأْلَفُهُ فَاطْلُبْ سِوَاهُ فَكُلُّ النَّاسِ إِخْوَانُ
وَإِنْ نَبَتْ بِكَ أَوْطَانٌ نَشَأَتْ بِهَا فَارْحَلْ فَكُلُّ بِلَادِ اللَّهِ أَوْطَانُ

المعنى : البيت الأول : أنّ السرور لا يدوم والدنيا دار امتحان فهو ما بين سرّاء وضرّاء وشدة ورخاء فينبغي التنبية؛ لذلك وفي البيت الثاني : إذا جفاك صديقك وكانت بينك وبينه مودة وصحبة، فأطلب رفيقاً سواه؛ لأنّ كلّ الناس إخوان وأصدقاء . والبيت الثالث : إذا ضاقت الأرض على إنسان في مكان، عليه أن ينتقل إلى مكان آخر لعله يجد فيه رفقة أحياناً ومجالات أنفع .

وينتقل إلى فكرة أخرى، ينصح الشّباب أن لا يعترّوا بنفسهم، فالتشوة تحجب عنهم إدراك الحقيقة والمعرفة، وهذه المرحلة زائلة لاتدوم لأحدٍ، والكثير من الشّباب ماتوا في ريعان شبابهم قبل أن يهرموا ويصبحوا شيوخاً ومسنّين، فقال :

يَا رَافِلاً فِي الشَّبَابِ الْوَحْفِ، مُنْتَشِياً، مِنْ كَأْسِهِ، هَلْ أَصَابَ الرُّشْدَ نَشْوَانُ

رافل : مختال مُتبختر. مُنْتَشِياً مِنْ كَأْسِهِ : مُعْجَبٌ مُدَلِّ بِحَيَوِيَّتِهِ وَفُنُوتِهِ . يَحْدَرُ الشَّبَابِ الْمَخْتَالَ الْمُعْتَرِّ بِشبابه، مخاطباً : أيها الشّباب المعجب بشبابه وقوّته، ما هي هذه النّشوة التي تجدها غروراً وزهواً وإعجاباً في نفسك وعدم الإنتفاع بهذه المرحلة من عمرك، فهذا لا يدوم لك ويزول، وهل أدرك الرّشد سكرانٌ ؟.

لَا تَعْتَرِّ بِشَبَابٍ وَارِفٍ خَضِلٍ، فَكَمْ تَقَدَّمَ قَبْلَ الشَّيْبِ، شَبَابُ

ويخاطب الشّباب مرّة أخرى، فعليك أيها الشّباب أن لاتعترّ بنفسك كثيراً وأنت صاحب همّة ونشاطٍ، أتحسب أنّك تعيش طويل الأمد، فالكثير من الشّباب ماتوا وهم في ريعان شبابهم قبل الشّيوخة والكبر .

و ينصح البستي هنا من كان في مرحلة الشّيب وهو ممعن في اللذات والزّلات، ليس مقبلاً على الطّاعات، أن يتنبّهوا ويكونوا نصحاء لأنفسهم حتّى لا يقعوا في اللذات والزّلات وهذا لا يليق بهم، ولو وجدنا عذراً للشّباب في ارتكابها، لما وجدنا للشيوخ عذراً، قائلاً :

وَيَا أَخَا الشَّيْبِ لَوْ نَاصَحْتَ نَفْسَكَ، لَمْ يَكُنْ لِمِثْلِكَ، فِي الْإِسْرَافِ، إِمْعَانُ

هَبِ الشَّبِيحَةَ تُبْلِي عُدْرَ صَاحِبِهَا مَا عُدْرُ أَشْيَبَ يَسْتَهْوِيهِ شَيْطَانُ

المعنى: أيها الشيخ الممعن في اللذات وأنت في هذا العمر لو نصحت نفسك لما وقعت في المذات والزلات . وهؤلاء الشباب يملكون القوة والحيوية والنشاط، وهم في ريعان شبابهم إذا وقعوا في الزلات يحتمل أن يكون لهم العذر في ارتكابها لأن الشباب قد يكون مطية للجهل، أما أنت أيها الشيخ لا عذر لك . وينتقل إلى فكرة أخرى وهي التحدث عن الله - تعالى-، أنه كريم وواسع الرحمة ويغفر الذنوب جميعاً إذا كان المرء التائب من أهل الإخلاص والإيمان، قائلاً :

كُلُّ الذُّنُوبِ، فَإِنَّ اللَّهَ يَغْفِرُهَا إِنْ شَبَّحَ الْمَرءَ إِخْلَاصٌ وَإِيمَانُ

وَكُلُّ كَسْرٍ، فَإِنَّ اللَّهَ يَجْبِرُهُ، وَمَا لِكَسْرِ قَنَاقَةِ الدِّينِ، جُبْرَانُ

مَنْ كَانَ مِنْ أَهْلِ الإِخْلَاصِ وَالإِيمَانِ فَإِنَّ اللَّهَ يَغْفِرُ ذُنُوبَهُ. وأي كسر يصاب به الإنسان في ماله أو صحته أو في أي مجال فالدين يجبره بالأجر والثواب، أما إذا كان الكسر في الدين فليس هناك أي شيء يجبره، وهذه هي المصيبة العظمى.

وأخيراً يحث الناس على حفظ قصيدته والحرص عليها، فهي حكيم عظيم كأمثال نائرة مجتمعة بالتجربة وصيغت بكلمات جميلة، فيها فائدة وتبيان لكثير من وجوه الخير في الدين والدنيا، وتنساب معانيها معنى بعد معنى، فيقول :

خَذَهَا سَوَائِرَ أَمْثَالٍ مُهَذَّبَةٍ فِيهَا لِمَنْ يَبْتَغِي التَّبِيانَ تَبِيانُ

مَا ضَرَّ حَسَانَهَا، وَالطَّبْعُ صَائِعُهَا، إِنْ لَمْ يَقْلُهَا قَرِيحُ الشَّعْرِ حَسَانُ

خذاها أمثالا عظيمة مجتمعة في مكان واحد، وصيغت بصياغة عذبة وكلمات جميلة يجد فيها بغيته من أراد التبيان والمعرفة بالحكم العظيمة النافعة، فهذا لا يقل من روعها وجمالها رغم أن قائلها شاعر محدث وهو ليس مثل الصحابي، شاعر الرسول - صلى الله عليه وسلم - حسان بن ثابت وأبو الفتح البستي ليس مراده وقصده التناء على نفسه ولا مدح شعره، ولكن مراده أن ينبه قارئه هذه الأبيات إلى المعاني الجميلة والحكم العظيمة التي تضمنتها هذه الأبيات .

بعض المميزات الفنية للقصيدة

ومن خلال دراسة هذه القصيدة نرى أن أبا الفتح البستي قد أطل في هذه القصيدة بخلاف القصائد الأخرى، وهي أنطق دليل على رفعة أدبه وبلاغة بيانه وكياسة فكره وصلاح نفسه وقد ضمنها النصائح والمواعظ البليغة الواعية، فهي لآلي منثورة وجواهر منظومة، وكل بيت منها حكمة مستقلة بنفسه، وهي أطول قصيدة من بين قصائده، وقد صاغها بكلمات سهلة بعيدة عن التعقيد، وقد فرغ كل جهده وبلاغته فيها، وكأنه واعظ يعظ الناس بوجههم ويتفهم محملاً بالكثير من التجارب التي اكتسبها في حياته الإجتماعية والسياسية، واحتكاكه بالناس والمجتمعات التي عاشها، مما أكسبه الخبرة في مختلف شؤون الحياة، ورسم

للقاريء والسّامع مجموعة من الفضائل والصفات ليتحلّى بها، وليبلغ هدفه وغايته . فجاءت الحكمة في شعره واضحة الأفكار، سهلة الألفاظ، عذبة الكلمات، وتنوّعت الحكمة ما بين النّصح والإرشاد، والتّحذير من الدّنيا ، والدّعوة إلى التأمّل ، ودلّ شعر الحكمة عنده على تنوّع ثقافته ، وغزارة علمه، وشدّة ذكائه، وثبات دينه وإيمانه، وتكثر في شعره الصّور البيانيّة من تشبيه واستعارة وكناية فضلاً عن الألوان البديعيّة التي زادت من جمالها، ويتّسم شعره بعذوبة الألفاظ ، ونرى من خلال شعره أنّ الأفكار مستوحاة من بيئته، فيبدو أثر البيئة من شعره ومن تنوّع ثقافته.

وقد تكلم - أيضاً - عن مجموعة من الصفات الخلقية، ومنها : العفو والإحسان والرّفق والتودّد واللّطف وغيرها . والخصال الدّينيّة، ومنها : التمسك بحبل الله والابتعاد عن الظلم والقناعة والزهد. والعلميّة، منها: الحرص على التّعليم وفصاحة اللّسان ومشاورة العقلاء وأصحاب الخبرة، وصاغها بإسلوب سهل فصيح بعيد عن التّعقيد، ونسج قصيدته بصور من البيان والبديع التي لا يكاد يخلو منها بيت، واختار لقصيدته بحر البسيط وهو بحر جيّاش يتّسع للفكرة وينهض بما يحملها الشّاعر من عناصر القوّة والتأثير، ومن أمثلة تشبيهاته واستعاراته وصوره البديعيّة قوله :

مَنْ يَزْرَع الشَّرَّ يَحْصُدُ فِي عَوَاقِبِهِ نَدَامَةً، وَلِحَصْدِ الزَّرْعِ إِبَّانُ
مَنْ اسْتَنَامَ إِلَى الْأَشْرَارِ، نَامَ وَفِي قَمِيصِهِ، مِنْهُمْ، صِلٌّ وَتُعْبَانُ

كأنه شبه الشر بنبات يزرع، وحذف المشبه به ورمز إليه بشيء من لوازمه وهو "يحصد" على سبيل الاستعارة المكنية، والغرض هو توضيح المعنى وإبرازه في صورة محسوسة ماثلة للثعبان.

وأما استعماله للبديع فقد كثر حتّى لا يكاد يخلو بيت من بعض أنواعه، ومن أمثلته :

زِيَادَةُ الْمَرِّ فِي ذُنْيَاهُ نُقْصَانُ وَرَبْحُهُ غَيْرَ مُحْضِ الْخَيْرِ خُسْرَانُ
نجد الطباق بين : زيادة ونقصان، ربح وخسران .ومن خلال الطباق الوارد بين زيادة ونقصان، ربح وخسران، اتّضحت الصّورة وثبتت الفكرة .

يَا عَامراً لَخْرَابِ الدَّهْرِ مُجْتَهِداً تَاللهِ هَلْ لَخْرَابِ الْعَمْرِ عُمْرَانُ

نجد الجناس التّام بين : العمر وعمران ، والطباق بين : العمارة والخراب. وهكذا جميع الأبيات لا تخلو من الصّور البديعيّة والصّور البيانيّة .

وقد استعمل الاستفهام والفعل المضارع كثيراً في أبياته وهذا يدلّ على التّجدد والاستمراريّة وتفيد فكرة النّصح والإرشاد ولتوضيح المعنى ، وقد استخدم أسلوب الشّروط في الكثير من أبيات قصيدته وبه يكمل المعنى، كما قال في بعض منها :

مَنْ يَتَّقِ اللهَ، يُحْمَدُ فِي عَوَاقِبِهِ وَيَكْفِيهِ شَرَّ مَنْ عَزُّوا وَمَنْ هَانُوا
مَنْ اسْتَعَانَ بِغَيْرِ اللهِ فِي طَلْبِ فَإِنَّ نَاصِرَهُ عَجَزٌ وَخِذْلَانُ
مَنْ مَدَّ طَرْفًا بِفَرْطِ الْجَهْلِ، نَحْوَ هَوَىْ أَغْضَى عَلَى الْحَقِّ يَوْمًا وَهُوَ خَزْيَانُ

مَنْ عَاشَرَ النَّاسَ لَاقَى مِنْهُمْ نَصَبًا لَأَنَّ سَوْسَهُمْ بَغِيٌّ وَعُدْوَانٌ
وقد استعمل أيضاً أسلوب الأمر، ومن قوله :

أَحْسِنُ إِلَى النَّاسِ تَسْتَعْبِدُ قُلُوبَهُمْ فَطَالَمَا اسْتَعْبَدَ الْإِنْسَانَ إِحْسَانٌ

إلا أنّ قصيدته تفتقر إلى التلاحم بين أفكارها، يذكر فكرة مثلاً، الإحسان ثم يتركها قبل أن يعالجها ويستكمل القول فيها، وينتقل إلى فكرة أخرى كالعفو مثلاً، ثم يعود إلى فكرة الإحسان مرة أخرى، وهكذا دواليك، دون أن تتأثر المعاني بشيء. وكان يعالج الفكرة في بيت أو بيتين، فقصيدته ليست وحدة مستقلة بمعناها وفكرتها، وامتلت بالنظرات الفلسفية والتأمل العميق لمختلف نواحي الكون والحياة، وامتاز أسلوبه بالسهولة والرقّة والصّفاء بحيث لا تكاد تعثر له على لفظ من الألفاظ الغريبة، وعلى ما يبدو كان أبو الفتح يبذل جهداً في اختيار الألفاظ الموحية ومضمون قصيدته تدعو إلى الفضائل الحميدة .

ولقد تأثر بعض الشعراء بقصائده ومنهم الشاعر أبو البقاء الرندي الذي تأثر بالقصيدة التونية ونسج على منوالها قصيدة بنفس الوزن والقافية ورثى بها دول الأندلس عندما احتلها المسيحيون وبين لنا أنّ كلّ شيء ينقص بعد أن يبلغ الكمال في هذه الحياة الدنيا، فينبغي على الإنسان ألا يفرح ويسرّ ويعتزّ بنعيمها وطيباتها لأنّ مصيرها الفناء والزوال، ومصائب الرّمان أنواع كثيرة، والحياة فيها المسرات وفيها الأحزان، ومطلعها :

لكلّ شيءٍ إذا ما تم نقصانٌ فلا يغرّ بطيب العيش إنسانٌ
هي الأمور كما شاهدتها دولٌ من سرّة رَمَنْ ساءتُه أزمانٌ
وهذه الدار لا تُبقي على أحد ولا يدوم على حالٍ لها شأن³⁹

39 - أحمد بن محمّد بن مقرئ التلمساني، نفع الطيب من غصن الأندلس الرطيب، ت: إحسان عباس، دار صادر، بيروت، 1968 م، 4 / 487.

خاتمة البحث

لقد جهد البُستي في انتقاء ألفاظه وتحليلتها بمختلف أنواع الصنعة البديعية، واتخذ من الجنس طبيعة ومذهباً، واستمد الكثير من أفكار حكمه من الآيات القرآنية والأحاديث النبوية وبعضها من الأمثال التي سبقته من الكتب التي درسها وثقافات الشعوب المجاورة، ومن تجاربه وآراؤه الخاصة في الحياة واتصاله بالناس، وقصيدته التونية التي بين أيدينا خير دليل على رفعة أدبه وبلاغة بيانه، ومواعظه ونصائحه السامية التي تتعلّق بالروابط بين الإنسان ومجتمعه، وبيّن فيها مجموعة من الفضائل التي يجب أن يتحلّى بها الإنسان، وأكثر شعره خواطر تصاغ في أبيات قليلة، قريبة الشبه بشعر الرباعيات الفارسية من حيث الروح والهدف، وقلماً تطول قصائده ويكثر في نظمه الجنس.

المصادر والمراجع

القرآن الكريم .

ابن خلكان، أبو العباس شمس الدين أحمد بن محمد، *وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان* ت : احسان عباس، دار صادر، بيروت، 1972 م.

ابن فارس، أبو الحسين أحمد بن زكريا، *معجم مقاييس اللغة*، ت : عبد السلام محمد هارون، دار الفكر، 1399 هـ، 1979 م .

ابن منظور، أبو الفضل جمال الدين محمد بن مكرم الافريقي المصري، *لسان العرب*، دار صادر، بيروت، بدون تاريخ.

أبو غدة، عبد الفتاح، *قصيدة عنوان الحكم*، شركة دار البشائر الإسلامية، بيروت، لبنان، ط 1، 1427 هـ .

التونجي، محمد، *المعجم المفصل في الأدب*، دار الكتب العلمية، بيروت، 1993 م .

الأندلسي، أبو عمر يوسف بن عبد الله بن محمد بن عبد البر النمري، *الاستنكار الجامع لمذاهب فقهاء الأمصار*، اخراج وترقيم : عبد المعطي قلنجي، دار قتيبية، دمشق، بيروت، دار الوعي، حلب، القاهرة، 1993 م.

البُستي، أبو الفتح علي بن الحسين بن يوسف بن محمد بن عبد العزيز، *ديوان أبي الفتح البستي*، تحقيق : درية الخطيب ولطفي الصقّال، مطبوعات مجمع اللغة العربية بدمشق، 1989 .

البُستي، أبو الفتح علي بن الحسين بن يوسف بن محمد بن عبد العزيز، *ديوان أبي الفتح البستي*، تحقيق : شاكر العاشور، رند للطباعة، دمشق، ط 3، 2011 م .

- البغدادي، إسماعيل باشا، هدية العارفين، أسماء المؤلفين والمصنفين، دار إحياء التراث العربي، بيروت، لبنان، بدون تاريخ.
- الثعالبي، أبو منصور عبد الملك بن محمد بن إسماعيل، بتيمة الدهر، شرح وتحقيق: مفيد محمد قميحة، دار الكتب العلميّة، بيروت، لبنان، ط 1، 1983 م.
- الجاحظ، أبو عثمان عمر بن بحر، البيان والتبيين، تحقيق وشرح: عبد السلام محمد هارون، مكتبة الخانجي، القاهرة، ط 7، 1988 م.
- الجبوري، يحيى، الشعر الجاهلي خصائصه وفنونه، مؤسسة الرسالة، بيروت، ط 5، 1986 م.
- الحسيني، السيد جعفر، تاريخ الأدب العربي، دار الاعتصام، قم، 1414 هـ.
- الذهبي، شمس الدين محمد بن أحمد بن عثمان، تاريخ الإسلام ووفيات المشاهير والأعلام، ت: عمر عبد السلام تدمري، دار الكتاب العربي، لبنان، بيروت، ط 1987، 1 م.
- رضا، أحمد، معجم متن اللغة، دار مكتبة الحياة، بيروت، 1958.
- الزركلي، خير الدين، الأعلام، دار العلم للملايين، بيروت، ط 15، 2002 م.
- زهير بن أبي سلمى، ديوان زهير بن أبي سلمى، شرحه وقدم له: علي حسن فاعور، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، ط 1، 1988 م.
- السبكي، تاج الدين أبي نصر عبد الوهاب بن علي بن عبد الكافي، طبقات الشافعية الكبرى، ت: محمود محمد الطناحي و عبد الفتاح محمد الحلو، دار إحياء الكتب العلميّة، ط 1، 1964 م.
- السطوحى، عبد الستار علي، الحكمة في الشعر العربي، دار الاعتصام، القاهرة، 1994 م.
- الشعار، فواز، الأدب العربي، دار الجيل، بيروت، 1999 م.
- العتبي، أبو نصر محمد بن عبد الجبار، التاريخ اليميني، دار الطليعة، بيروت، بدون تاريخ.
- عكاوي، رحاب، لآلى الحكم، دار الفكر العربي، بيروت، ط 1، 2003 م.
- فروخ، عمر، تاريخ الأدب العربي، دار العلم للملايين، بيروت، ط 4، 1984 م.
- القضاعي، القاضي أبي عبد الله محمد بن سلامة، مسند الشهاب، ت: حمدي عبد المجيد السلفي، مؤسسة الرسالة، بيروت، ط 1، 1985 م.
- لسترنج، كي، بلدان الخلافة الشرقية، ترجمة: بشير فرنسيس و كوركيس عواد، مؤسسة الرسالة، بيروت، 1985 م.
- مجمع اللغة العربية بالقاهرة، المعجم الوسيط، مكتبة الشروق الدولية، مصر، ط 4، 2004 م.
- محمد، يوسف فران، زهير بن أبي سلمى حياته وشعره، دار الكتب العلمية، بيروت، ط 1، 1411 هـ.
- المنيبي، أحمد، شرح تاريخ العتبي المسمى بالفتح الوهبي على تاريخ أبي نصر العتبي، ت: محمد

- باشا توفيق ، تصحيح : مصطفى وهبي ، المطبعة الوهبية ، مصر ، 1386 هـ .
- النورستاني، محمد محمدي ، "معامل العلم والعلماء (بست) مدينة العظاء" ، مجلة الوعي الإسلامي الكويتية ، العدد 565 ، لعام 2012م.
- النيسابوري، الإمام أبي سعد عبد الكريم بن محمد بن منصور التميمي، الأنساب ، ت : عبد الرحمن بن يحيى المعلمي اليماني، مكتبة ابن تيمية، القاهرة، ط 1، 1980 م .
- محمد بن أحمد بن سالم السفاريني، غناء الألباب في شرح منظومة الأداب، مؤسسة قرطبة، ط 2 ، 1993م
- اليوسي، الحسن ، زهر الأداب في الحكم والأمثال، ت : محمد حجي و محمد الأخضر، دار الثقافة، المغرب، ط1، 1981 م .
- أبو العتاهية، ديوان أبي العتاهية، دار بيروت للطباعة ، بيروت، 1986 م.
- التلمساني ، أحمد بن محمد بن مقري ، نفع الطيب من غصن الأندلس الرطيب ، ت: إحسان عباس، دار صادر، بيروت، 1968 م.